محاضرة: أضرب الخبر وخروجه عن مقتضى الظاهر

بسم الله الرحمن الرحيم

تحدثنا سابقاً في موضوع "الخبر"، وعن أغراض الخبر الحقيقية وأغراض الخبر البلاغية. اليوم نتحدث حول **أنواع الخبر** أو ما يسمى **أضرب الخبر**.

مقدمة: البلاغة ومراعاة حال السامع

قال البلاغيون: "إن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال".

وعندما يتحدثون عن هذه القضية، عن أي حال يتحدثون؟ إنهم يتحدثون بالضرورة عن حال السامع.

ومعنى هذا الأمر أن الخبر لابد أن يُنوَّع في صياغته بما يتناسب مع أحوال السامعين؛ فاختلافات السامعين موجودة، فليسوا على درجة واحدة من الذكاء والفطنة أو غير ذلك، وليست مقاماتهم مقامات واحدة.

لذلك، طالما أن أحوال السامعين تتعدد والمقامات تختلف، إذن لابد أن تختلف طرائق صياغة الجمل الخبرية من حال إلى حال ومن متلقٍ إلى متلقٍ آخر.

هذا الأمر مهم جداً لكي يؤتي الكلام ثماره؛ لأنه إذا وقع خلاف بين الكلام وبين حال السامع، قد يجد السامع في الكلام شيئاً غير مفهوم. فإذا خاطبت الإنسان غير الذكي بالكلام الموجز ربما لا يعرف من الكلام شيئاً، ولذلك لابد أن نخاطبه بما يناسب درجة ذكائه وبما يناسب ثقافته ومعرفته.

شاهد أدبي (قصة بشار بن برد)

هذا أمر أدركه الشعراء قديماً، فكانوا يخاطبون الناس على قدر عقولهم وعلى قدر حاجاتهم واهتماماتهم.

قيل للشاعر بشار بن برد: إنك لتقول الشيء الجزل (القوي) وبكل تأكيد الشيء الرصين والغريب، ثم نراك تقول شعراً بسيطاً!

قال لهم: كيف ذلك؟

قالوا له: إنك تقول كلاماً يُثير النقع (الغبار) ويخلب الألباب، كقولك:

إذا ما غَضِبنا غَضبَةً مُضَرِيَّةً * **هَتَكنا حِجابَ الشَمسِ أَو تَمطُرَ الدَما**

أو قولك:

إذا ما أَعَرتُ مِنيتي مِن مَنبَرٍ * **صَلّى عَلَيَّ وَسَلَّما**

كلام جميل وكلام مؤثر.. وفي نفس الوقت تقول:

رَبابَةُ رَبَّةُ البَيتِ * تَصُبُّ الخَلَّ في الزَيتِ

لَها عَشرُ دَجاجاتٍ * وَديكٌ حَسَنُ الصَوتِ

كيف يمكن أن نوفق بين كلامك الأول الجميل وبين هذا الكلام؟

ماذا قال لهم؟ قال: "لكل وجه وموضع".

هذان البيتان (شعر ربابة) قلتهما في جارية كانت تجمع البيض، وأنا لا آكل البيض من السوق، وهما عندها أجمل من "قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل" (معلقة امرئ القيس).

ماذا يعني هذا الكلام؟

معنى ذلك أنه لابد أن نخاطب الناس على قدر اهتماماتهم وعقولهم؛ هذه الجارية ليس لها من الاهتمام سوى بيتها، لا يهمها كثيراً أن يجود الشاعر في القصيدة أو يستخدم الفنون البلاغية المتعددة، لأن هذا خارج اهتمامها، لكن ما يهمها هو البيت والدجاجات والكلمات البسيطة والحياة البسيطة. لذلك هو يقول إن هذين البيتين بالنسبة لها أجمل من المعلقات. وهذه المقولة تؤكد لنا "مطابقة الكلام لمقتضى الحال".

أولاً: أضرب الخبر (بحسب حال السامع)

قسم البلاغيون أنواع الخبر بالنسبة إلى حال المتلقي إلى ثلاثة أنواع:

1. الخبر الابتدائي (لخالي الذهن)

إذا كان السامع خالي الذهن من الخبر (أي لا علم له به مسبقاً)، يُلقى الخبر عليه بدون أدوات التوكيد. ويسمى هذا خبراً ابتدائياً.

لماذا؟ لأنك عندما تؤكد الخبر لمن لا علم له به، فكأنك تدعي أن السامع يعلم بالشيء ويشك فيه فتؤكده له، وهذا أمر قد يستفز السامع. لا يجوز أن تأتيني بخبر وتبدأ بالقسم أو اليمين وأنا لا علم لي به ولا أشك فيه.

الشاهد البلاغي: قول المتنبي:

لا يَسلَمُ الشَرَفُ الرَفيعُ مِنَ الأَذى * **حَتّى يُراقَ عَلى جَوانِبِهِ الدَمُ**

لو نظرنا إلى هذا البيت، لا نجد فيه مؤكدات. الشاعر يلقي حكمة لأول مرة: أن الشرف العظيم لا يحميه إلا القوة والتضحية. بما أنه يلقي الكلام ابتداءً، جاء الكلام خالياً من أدوات التوكيد.

2. الخبر الطلبي (للمتردد)

إذا كان السامع متردداً في قبول الخبر (يعلم بالخبر لكنه غير متيقن أو يشك)، فمن الأحسن أن يؤكد له الخبر ليطمئن وتزول شكوكه. ويسمى خبراً طلبياً.

سمي "طلبياً" لأن السامع المتردد بلسان حاله يطلب من المتكلم أن يزيل هذا الشك.

الشاهد البلاغي:

إذا ما الأُصولُ في غَيرِ ذاكَ * كَما قَد ذَكَرتَ مَدى الدَهرِ فُروعا

(ملاحظة: الشاهد في قوله "ما" الزائدة للتوكيد).

عندما يكون السامع شاكاً، نستخدم مؤكداً واحداً مثل (إنّ، قد، اللام، الحروف الزائدة... إلخ).

3. الخبر الإنكاري (للمنكر)

إذا كان السامع **منكراً** للخبر، فيجب أن يُلقى الخبر عليه **مؤكداً بأكثر من مؤكد** (حسب درجة الإنكار) ليقلع عن إنكاره. ويسمى **خبراً إنكارياً**.

الشاهد القرآني (سورة يس):

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾.

- في البداية (إذ أرسلنا إليهم اثنين) كان خبراً ابتدائياً.
- فلما كذبوهما (حدث إنكار)، قالوا في المرة الثانية: ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ (أكدوا بـ "إنّ" واسم الجملة الاسمية).
- فلما اشتد الإنكار وقال الكفار: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا...﴾، جاء الرد الثالث بأقوى درجات التوكيد: ﴿قَالُوا **رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا** إِلَيْكُمْ **لَمُرْسَلُونَ**﴾.
    - (ربنا يعلم): تجري مجرى القسم.
    - (إنّ): توكيد.
    - (اللام): اللام المزحلقة للتوكيد.

ثانياً: خروج الخبر عن مقتضى الظاهر

الأصل أن نطابق الكلام لحال السامع، لكن أحياناً المتكلم **يتعمد مخالفة حال السامع** لاعتبارات بلاغية ودلالية، وهذا قمة في البلاغة لأنه يثير الانتباه.

1. إنزال خالي الذهن منزلة المتردد

نتعامل مع الشخص الذي لا يعلم (خالي الذهن) وكأنه متردد، فنؤكد له الكلام.

- **الشرط:** إذا تقدم في الكلام ما يوحي بمضمون الخبر.

الشاهد القرآني:

قال تعالى لنوح عليه السلام: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

جملة "لا تخاطبني في الذين ظلموا" توحي بأن هناك عقاباً سينزل بهم، فصار السامع (نوح) يتشوف للخبر وكأنه متردد: "ماذا سيحل بهم؟"، فجاء الجواب مؤكداً: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

شاهد شعري:

تَرَفَّقْ أَيُّها المَولى عَلَيهِم * **فَإِنَّ الرِفقَ بِالجاني عِتابُ**

قوله "ترفق عليهم" يوحي بأن الرفق له نتيجة، فجاء التعليل مؤكداً (فإن الرفق...) لأن السامع استشرف الخبر.

2. إنزال غير المنكر منزلة المنكر

نتعامل مع الشخص الذي يعلم الحقيقة ولا ينكرها بلسانه، معاملة المنكر فنؤكد له الخبر.

- **الشرط:** إذا ظهرت عليه علامات الإنكار (بسلوكه).

الشاهد القرآني:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾.

هل هناك أحد ينكر الموت؟ لا. الموت حقيقة. فلماذا أكد الله الخبر بـ (إنّ) و(اللام)؟

لأن الناس انشغلوا بالدنيا وغفلوا عن الآخرة، فظهرت عليهم علامات من ينكر الموت، فخوطبوا خطاب المنكرين.

شاهد شعري:

جاءَ شَقيقٌ عارِضاً رُمحَهُ * **إِنَّ بَني عَمِّكَ فيهِم رِماحُ**

(شقيق) خرج يمشي بتبختر واضعاً رمحه بالعرض وغير مستعد، مع أنه يعلم أن بني عمه مسلحون. فعامله الشاعر معاملة المنكر لكونهم مسلحين (لأنه لم يأخذ حذره)، فأكد له الخبر: (إن بني عمك فيهم رماح).

3. إنزال المنكر منزلة غير المنكر

نتعامل مع الشخص المنكر معاملة الموافق، فلا نؤكد له الخبر.

- **الشرط:** إذا كان بين يديه أدلة وشواهد لو تأملها لزال إنكاره.
- **الفائدة:** هذا أبلغ، وكأنك تقول له: "الأدلة واضحة لدرجة أني لا أحتاج لتأكيد كلامي، فتدبر!".

الشاهد القرآني:

قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾.

المخاطبون هم المشركون (المنكرون للوحدانية)، ومع ذلك جاء الخبر (وإلهكم إله واحد) بدون توكيد (لم يقل: إن إلهكم...).

لماذا؟ لأن الأدلة في الكون على وحدانية الله أوضح من أن يُحتاج معها إلى توكيد، فترك التوكيد لدفعهم إلى التفكر في الأدلة.

ختاماً:

بهذا ننهي موضوعنا حول أضرب الخبر وخروجه عن مقتضى الظاهر. أتمنى أن يكون الأمر واضحاً في أذهانكم، وشكراً لكم، وإن شاء الله نلتقي في محاضرة قادمة.